الدراسة في النجف

الفصل الرابع

بقلم الاستاذ احمد مجيد عيسى

— ٣ —

« طريقة الدراسة في النجف »

لو القينا نظرة فاحصة على طريقة التدريس في النجف لوجدناها القائية صرفة ممزوجة في بعض الأحيان مع طرق اخرى كطريقة المناقشة الاجتماعية (كما في نظام الحلقات) .

وهي تقسم من حيث النوع الى قسمين

١ — نظام الحلقات .

٢ — الدراسة الفردية

وتقسم ايضاً من حيث الزمن الى قسمين

١ — قديمة

٢ — حديثة

اقسامها من حيث النوع وميزات كل نوع :

أ — نظام الحلقات : ومعنى نظام الحلقات ان يجتمع الطلاب حول الاستاذ يتلقون الدرس منه مرة واحدة . وهم يجلسون حوله على شكل نصف دائرة ان كان العدد صغيراً وعلى شكل مجلس من المجالس ان كان العدد كبيراً وفي الحالة الثانية يرتقي الاستاذ المنبر بدل ان يجلس بين الطلاب ليراه الجميع .

ويختلف عدد الطلاب بين حلقة واخرى فقد تكتظ بعض الحلقات بالعشرات من التلاميذ تجمعهم جامعة واحدة هي كتاب واحد يتلقون الدرس به من الأعلام وهي (الحلقة) بهذا الشكل شبيهة بالصف الذي بالمعاهد الحاضرة وان لم تكن منه لانها متكونة من افراد مختلفين في سني الدراسة وقراءة الكتب التي قرأها كل منهم حتى وصل الى هذا الكتاب .

وهذا الدرس الذي يدرسه الطالب في هذه الحلقة هو ما يطلق عليه في مصطلحهم درس السطح (١) .

ولكن هنالك حلقات اخرى ومحافل اوسع من تلك ، تضم المئات والالوف حسب مقدرة الاستاذ وتمكنه من اقتناص الحقائق . وهذه اوسع من تلك دراسة حيث لا يلتزم الاستاذ بكتاب واحد بل يأتي المطالب المتعددة التي قد استخرجها من مواضيع كثيرة قد أتعب فكره في تحصيلها وسهر ليله في تمحيصها حتى اماط عن غامضها الحجاب وميز القشور عن اللباب وبهذا يعرف مقدار علم الاستاذ وتضلعه في الاستنباط وبه يميز بين العلمين المتعاصرين ومن حاز قصب السبق حاز الزعامة العامة في التدريس وهذه المعلومات التي يلقيها الاستاذ في حلقة كهذه هي التي يصطلحون عليها بدرس الخارج (٢) . وهذه الحلقة

(١) ابحاث السطح : هي الابحاث التي تحتويها الكتب الموضوعة للدراسة والتي يقرؤها الطالب . او بالأحرى هي المواد التي تدرس من نحو وصرف ومنطق وبلاغة ... الخ

(٢) ابحاث الخارج : هي الابحاث التي تكون كتعليقات وتوضيحات لما هو موجود في الكتب التي قرأها الطالب وحصل الشهادة عليها بعد انتهائه منها والتي تتضمن الفقه والأصول فقط لا تتعداها الى غيرها .

مسؤولة امام الحكومات العربية فضلا عن شعوبها وعن ادبائها بصورة لا تدع مجالا لأي جور او ميل اقليمي . اني انها يجب ان تكون تحت اشراف الجامعة العربية المتمثل فيها كل ما للعرب من كيان ، سياسي او اقتصادي او ثقافي ، فهي التي ترشحهم وهي التي تعين مكان وزمان اجتماعهم ومن دارها لا دار الهلال تعلن النتيجة ويعلن اسم امير الشعراء الجديد ...

ان المسألة كما يبدو ليست هزلا من الهزل ولا لهواً من اللهو ولا فكاهة من الفكاهات وحتى لو كانت كذلك لم يحسن السكوت ، اذ ربما انقلب الهزل الى جد وانقلب الخيال الى حقيقة ، وقد قيل من قبل ، (ان الحرب اولها كلام ...)

نحن نعرف عن الهلال انه مجلة كثيرة التفنن والابتداع لذلك كان لها في كل عدد جديد من لون وموضوعات وطرائف فاذا كانت قد اتخذت من هذا الموضوع وسيلة من وسائل ذلك التفنن والابتداع فاننا نود ان ننبهها الى انها يجب ان تتجنب كل ما فيه مسؤولية ادبية او معنوية بله المادية مما تنشره وستنشره في اعدادها القابلة ، كهذا الموضوع الذي نشرته على صفحاتها سائلين الله ان يسدد خطاها الى كل ما فيه خيرها وخير العرب ادباء وغير ادباء .

هادي محي الخفاجي

وان اختلط بها الخابل بالنابل والجاهل بالفاضل ولكن باستطاعة الاستاذ ان يميز الطالب الفاهم عن غيره ولا يبخس حقه فيمدحه امام اخوانه لأنه هو الذي يعترف له ذوو الفضل بالفضيلة بعد الاختبار والمذاكرة والتدريس والتأليف .

وتمتاز نظام الحلقات بان للطالب الحق في استعمال أي شيء بهذا الدرس وله ان يلبس ما يختار وان يجلس بأي نحو شاء مالم يخرج عن حدود الأدب . وانهم ان له التمتع بحرية الفكر : فله ان ينتقد الاستاذ اثناء الدرس وله ان يجيب عن اعتراض بعض التلاميذ وان يسأل ما يريد وقد يقهر الطالب باقامة المعلم بالعدول عن نظريته باقامة البراهين على دعواه . وعلى الاستاذ ان يصغي الى دليله ودعواه . وللطالب الحق ايضاً في مطالبة الاستاذ بالبرهان على كل قضية اعتراه شك فيها . وفي الحلقات الكبيرة لا فرق بين الاستاذ وبين التلميذ .

ب — الدراسة الفردية : للتدريس في النجف — عدا نظام الحلقات — نمط منفرد وطراز لا يشبهه نظام فيما وقف عليه بعض العلماء من مناهج التدريس ونظامه وهذا النمط هو الذي يدعى التدريس الفردي . ومعنى ذلك ان الطالب الذي يتخصص لطلب العلوم الدينية او غيرها يتدرج وحده في مراتبه العلمية وفي درسه واساتذته من دون ان يندمج في صفوف او يتحكم في ارادته نظام . لابد للطالب في هذه الدراسة ان يلتحق باستاذ يدرس عليه ولكنه يدرس عند هذا الاستاذ منفرداً دون ان يشترك مع غيره بحلقة من الحلقات وللطالب في هذه الحالة ان يترك الاستاذ الى غيره ممن يرى فيه ارجحية على الاول وله ان يترك الكتاب الذي بين يديه وينتقل الى كتاب آخر ايضاً . وقد يتفق للطالب ان يحضر عند عدة اساتذة في درس واحد بل في مسألة واحدة . وتعرف مهارة الطالب ويعرف نجاحه بكثرة نقاشه في النظريات العلمية نقاشاً مقبولا .

ومما تجب الاشارة اليه ان الطالب لا يدخل نظام الحلقات إلا بعد اجتيازه دور الدراسة الفردية . وقد يتفق جميع المشتغلين بتلك العلوم المقررة على وضعية واحدة تركها لهم سلفهم ألا وهي قراءة كتب معينة ، ولكن كلاً منهم يحتفظ بما تمتاز به هذه الدراسة (الفردية) كما مر .

وربما يقرأ الطالب بعض الكتب بمفرده دون مراجعة أي استاذ فيقع في اخطاء قليلة او كثيرة تعرقل عليه سبيل الفهم : مثال :

قرأ احد الطلبة في كتاب ما جملة في مدح الباقر (ع) وهي « كان محمد الباقر فتى حزوراً (١) » بيد أن الطالب قرأها حروراً وخروراً فتغير المعنى لأنه لم يرجع الى استاذ ليسأله فيها ومثل هذا كثير الوقوع .

ولا شك ان الدراسة الفردية اقل نفعاً من نظام الحلقات فان الطالب في هذه الدراسة الفردية « كما مر » لا يرتبط بالاستاذ او بالدرس اذ يترك الاستاذ الى شاء ويرجع اليه متى احب ورغب وهذا مما يؤخر دراسته . اما في نظام الحلقات فانه مرتبط بما يسود الحلقة من نظام ومرتبط بدرسه لأنه ان تعطل عن درسه فاته اصحابه وتفوقوا عليه . ولكنها « الدراسة الفردية » من الجهة الاخرى — كما يرى صاحب كتاب الغيب والشهادة — خالية من التدليس فلا يمكن ان تنال الدرجة الأخيرة [درجة الاجتهاد] بغير الكفاية الحقيقية . والكفء الحقيقي هو المجتهد » واغلب الدراسة في النجف فردية .

اقسامها من حيث الزمن :

أ — القديمة : ونمط الدراسة القديمة هو ان يجتمع الطلاب بمحل واحد ومعهم استاذهم فيقرأ احدهم الموضوع المتفق عليه من الكتاب المقرر او الموضوع الذي انتخبوه على استاذه فقرة فقرة بعد ان يملي الاستاذ بخواطره في مقدمات كثيرة لهذا الدرس الجديد لربط الجديد بالقديم ، ولا يتحول الطالب من فقرة الى اخرى مالم يفهمها الطلاب الباقون فهماً جيداً بما يبديه الاستاذ من الشروح التفاصيل لكل ما غمض عليهم فهمه واثناء قراءة الطالب للموضوع يكون بقية الطلاب المجتمعين حول الاستاذ صاغين منتبهين لما يشرحه الاستاذ ولما يدور بين الاستاذ والطالب من الحوار والنقاش لانهم على استعداد للاشتراك في المناقشة وثم ينتبه الطالب القارئ ايضاً الى الاستاذ بعد انتهائه من القراءة . هذا على ان لا يغرب عن بالنا ان قراءة الطالب [يجب] ان لا تحيد عن العربية فان لحن في قراءته

(١) حزور : أي قوي العضلات او قوي شجاع .

ردّ عليه استاذه او احد الطلاب غلطه وصلحه له .

ب — الحديثة : وهي التي عمل بموجبها قبل عهد السيد مهدي بحر العلوم بزمن يسير والتي لاتزال مستعملة حتى الآن وهي ان يجتمع الطلاب ويقرأ عليهم الاستاذ نفسه (لا الطالب) الموضوع الذي اتفقوا على دراسته وهم يستمعون له ويشرح لهم الاستاذ اثناء قراءته ماغمض عليهم فهمه مع بعض التعليقات لتكمل الفائدة المتوخاة . على ان الطريقة القديمة لا تزال تستعمل بصورة قليلة رغم استعمال الحديثة .

وتفضل الطريقة الاولى على الثانية لما فيها من النفع الاكثر إذ ان الطالب فيها هو الفعّال بينما يكون الاستاذ هو الفعال بالثانية . والاولى مريحة للاستاذ عكس الثانية فانها مجهدة للأستاذ ، ولنفع الطريقة الاولى فانها لم تستعمل في حينها في النجف فحسب بل في بغداد والحلة وحتى في مصر (الأزهر) .

وفي كلتا الطريقتين يكون باب المناقشة مفتوحا للجميع والطالب فيها حر التفكير وهذه الطرق كلها قديمة بالنسبة للوقت الحاضر واكبر نقص فيها التطويل فانه من اكبر المعرقلات في سبيل التحصيل الديني وما يحصله الطالب عند اتباعه هذه الطرق اقل الى حد غير قليل مما لو اتبعت الطرق التربوية الحديثة .

وقد لاقى الطلاب في تحصيل علومهم ومعارفهم من المتاعب والعناء شيئاً غير قليل فهم اثناء دراستهم يتخذون قراراً لكل مؤلف يظهر لأحد علمائهم الذين نبغوا ويجعلون له درجة في سلسلة كتب الدراسة كما حدث لبعض المؤلفات الأصولية والفقهية ، وعناء آخر يعترض التلميذ في سيره العلمي وهو أنه لا توجد لطلاب المدارس الدينية رواتب ومرتبات تكفل معيشتهم إلا من شذ . وقد اجهد بعض علمائهم انفسهم في ان يعدوا مما تدرّ به عليهم الأقوام رواتب لجملة من الطلبة تسد نفقاتهم وقد فشل بعض ونجح قليل والمحتم على الطالب فيهم مالم يكن له مرتزق ان يتجلبب من الصبر جلبابا يقاوم به عناء الدرس ومشقة الفقر ويكون مرتزقه من الصدف والاتفاقات وبهذا يجمع بين امرين امرّين .

الشهادة والإجازة :

تقدمت النجف بابنائها تقدماً ملحوظاً وطفقوا يتسابقون في مضمار الجد والاجتهاد لينالوا الشهادة [التي هي عندهم اغلى من كل نفيس والتي لايكون فيها تمويه ولا تدليس] من هذه المدرسة فاذا بلغ الطالب الغاية وحاز قصب السبق واذا سبر الأستاذ غور مقدار نبوغه وملكته الاستنباطية حاز « الطالب » على الشهادة وآب الى وطنه وهو حاملها فاذا حل بين ظهراني قومه نشر بينهم معارفه ولمعت في ربوعهم انواره . ولا يحوز الطالب الشهادة من هذه المدرسة (النجف) بغير الكفاية الحقيقية والاهلية الثابتة .

وهنالك شهادة واجازة :

الاجازة : هي التي يمنحها الاستاذ (الشيخ) الى الطالب بعد انتهائه من دراسة مادة من المواد واتقانها والتي تخوله (الطالب) حق تدريس تلك المادة فقط ولا تسمح له بان يكون صاحب حلقة من الحلقات . وهي اشبه بشهادة الانتقال من صف الى صف آخر بالمدارس الحكومية .

الشهادة : وهي التي يمنحها الاستاذ للطالب بعد انتهائه من دراسة المواد التي اعدت للدراسة جميعاً وهذه تدعى بشهادة الأجتهاد ويصبح حاملها استاذاً يستطيع ان يدرس ويدير حلقة من الحلقات الدراسية . وهذه هي الشهادة التي يرنو طلاب العلم الحصول عليها وهي تشبه شهادة الانتهاء من الدراسة الجامعية الحكومية .

ولعمري ما اكثر الشبه بين كيفية الحيازة على الشهادة من هذه المدرسة « النجف » وبين كيفية الحيازة عليها من احدى الكليات الحاضرة ، فكما ان الطالب في الكلية عليه ان يقدم رسالة او « اطروحة » الموضوع من المواضيع التي درسها او غيرها مما له علاقة بها تثبت تضلعه او تعمقه بدرس ذلك الموضوع او في تلك المادة وجدارته بتدريسه قبل ان يعطى الشهادة كذلك الحال في النجف فان الطالب لاينال الشهادة الا ان يؤلف كتاباً بموضوع من المواضيع التي درسها او غيرها مما له علاقة بها يثبت جدارته في التدريس وفهمه لما درسه أو تثبت المجالس العلمية التي يقوم فيها البحث والتنقيب والجدل والمناقشة على قدم وساق جدارته بما يبديه من ارآء صائبة وفكر ثاقبة .

وقد تخرج الكثير من هذه المدرسة مما يفوتهم الحصر

فارتسمت صورهم على صفحات الدهر تمثل رجال الدين وحملة العلم الذين قاموا بعبئه وبرعوا بكل فن من فنونه ومن اخلدهم ذكراً مؤسس النهضة العلمية في لكنهور عاصمة الهند العلمية وهو السيد دلدار علي الذي خرج من النجف وهو حامل شهادته من احد اركان العلم وهو العلامة السيد مهدي بحر العلوم « ره » وليس هنالك من حاضرة من حواضر فارس ولا قرية من قراها إلا ويرى فيها من خريجي هذه الكلية من له النفوذ بها والمنبر والمحراب ؛ وكذلك الامر في سوريا ففي جبل عامل مئات من خريجي هذه الكلية ولو اردنا ذكرهم لفات الحصر وفي عهد العلامة الشيخ جعفر كاشف الغطاء كثرة الهجرة اليه وازدحم حملة العلم على محل درسه حتى كان مضرب المثل في كثرة من تخرج عليه من طلاب العلم .

ودع — أيها القارئ — عنا العهد الغابر وهيا بنا الى عهدنا الحاضر لنرى ان زعماء الدين ورجال الاصلاح الذين قاموا بنشر العلوم والمعارف في اوطانهم هم بعض خريجي تلك العاصمة الدينية . وقد عاش في حجرها وتغذى من درها ردحا من الزمن كثير من العلماء منهم : السيد عبد الحسين شرف الدين الذي طبقت شهرته العلمية جميع الآفاق وهو صاحب كتاب [الفصول المهمة في تأليف الامة] المطبوع وغيره من المؤلفات الممتعة ؛ ومنهم الشيخ عبد الحسين صادق الذي جمع بين الادب والعلم ؛ وقد حاز قبله ابوه وجده على هذه الشهادة ؛ ومنهم السيد محسن الامين صاحب المؤلفات الكثيرة ؛ ومنهم السيد عبد الحسين نور الدين صاحب [الكلمات الثلاث] المطبوع ؛ ومنهم الشيخ حسن مغنية .

وقبل ان اترك هذا الموضوع « الاجازة والشهادة » ارى من الاجدر ان اثبت بعض صور الاجازات التي تعطى في النجف والتي حصلت عليها من بعض الكتب الخطية .

قرأ احد الطلاب كتاب نهج البلاغة على استاذه واتقنه وبعد اتقانه منحه الاستاذ هذه الاجازة :

« قرأ علي الطالب ... كل الكتاب ... فكمل له الكتاب كله وشرحت له مشاكله وابرزت له كنزاً من معانيه واذنت له بالرواية عني ؛ عن الفقيه العالم ... عن ... فليروي عنه من شاء واحب » (١)

اعطى المحقق الثاني اجازة لاحد طلابه المسمى بابن جامع قال فيها:

« ان الولد الصالح الشهير بابن جامع ورد علينا المشهد المقدس الغروي [النجف] وانتظم في سلك المجاورين بتلك البقعة برهة من الزمن وفي خلال ذلك قرأ علي الفية في الفقه فليروي عنه من شاء واحب »

هاتان صورتان مختلفتان الاجازة . اما الشهادة فانها لا تختلف بصورتها عن هاتين الاجازتين ما عدا تغيير بعض الالفاظ وذكر الكتب التي قرأها الطالب على الاستاذ واتقنها وليس في النجف مدة محدودة للدراسة والحصول على الشهادة .

(١) يقصد الاستاذ بذكر عن ... عن ... ذكر اساتذته (أي اساتذة الاستاذ نفسه الذين درس عليهم)

فلسفة الحب والجمال

للاستاذ عبد الحميد الصغير

صور الحسن قد تجلت لذاتي ... فاذا همت في الجمال الذاتي
انه الحسن آية للأعاجيب ... فكم فيه اعجب الآيات
يتراءى لنا جلياً ولكن ... هو في الكون محور المشكلات
وعليه كم حار فكري لتحليل ... علاه خفاش في غمرات
كلما رمت حل شيء اراني ... شبهات تعوم في شبهات
هو في الكون محور للقضايا ... واساس السكون والحركات
واضحاً بان للنفوس ولكن ... هو في الوصف طلسم المبهمات
قد قرأناه في الوجود زمانا ... فرأيناه فتنة الكائنات
ودرسنا آثاره فوجدنا ... انه مرسل الى العاطفات
فاذا ما اردت معرفة الحسن ... فحاول تحليل هذي النكات
الفضاء والاثير والجدول الضافي وورد الخمائل الزاهرات
وتصفح دقائق الحسن في البدر وعند السماء والنيرات
في غناء الرعات في رقدة الليل وعند الكهوف والفلوات
نظرة للجمال يوماً ارتنه ... ان سر الجمال في النظرات
وارتنا بان مشكلة الحب ... اتتنا من لمح بعض الصفات
عرفنا ان الغرام الى القلب ... كقطر الندى لزهر النبات
منهج الحب قد ارانا عيانا ... ان عيش الغرام معنى الحياة
وارانا في الكون ان حياة ... لم يشبها الغرام عين المماة